

جيداً أمر أكبر أهمية، في بعض الجوانب الحيوية ، من كونه شاعراً عظيماً . وأنا أرى أن الحكم الوحيد للفصل فيما يترتب عليّ قوله إنما هو الحكم المتمثل في أقدر ممارسي الشعر في زماني .

ان الحقيقة ذات الأهمية القصوى حول ملتون ، فيما يتصل بغرضي ، هي كونه كفيفاً، ولست أقصد أن الإصابة بالعمى في منتصف العمر تعد في حد ذاتها كافية لتقرير مجمل طبيعة شعر الإنسان . وإنما يجب النظر الى العمى من حيث ارتباطه بشخصية ملتون وسجاياه ، وبالثقافة المتميزة التي تلقاها ، كما يجب النظر إليه ايضاً من حيث ارتباطه بالانغماس في فن الموسيقى والخبرة فيه . فلو أن ملتون كان رجلاً ذا حواسّ بالغة الحدة — وأنا أقصد كلّ الحواس الخمس — لما كان لعماه كل هذا الأثر . غير أن العمى بالقياس الى رجل تعرّضت ملكته الحسيّة ، على ما كانت عليه ، للذبول منذ وقت مبكر بالتعلّم عن طريق الكتاب ، وكانت مواهبه بالطبع سمعية ، كان له شأن كبير . ولسوف يبدو، في الواقع ، انه أعانه على التركيز على ما كان في وسعه القيام به على أفضل وجه .

وما من عهد يتجلّى فيه الخيال البصريّ في شعر ملتون . وما كان ليكون له إلا قليل من ضروب التصوير التي أقصدها بالخيال البصري، ففي مكبث :

ان ضيف الصيف هذا ،
الخطّاف الذي يتتاب الهيكل، يقرّ بالفعل
عن طريق داره الحبيبة، أن أنفاس السماء
لها عبير الإغراء ههنا : فليس هناك دعامة أو أفريز ناتان
ولا ركّن يمتاز بالأفضلية، ولكن هذا الطائر
اتخذ لنفسه سريراً مشرفاً، ومهداً للإنجاب :
فحيثما يتكاثرون، وترددون عليه، كنت ألاحظ
أن النسيم رقيق.

ويمكن أن يلاحظ أن مثل هذه الصورة شأنها شأن شاهد آخر معروف،